الفصل الأوَّل

مدينةُ السلام

تبدأ قصَّتي في القدس، المدينة المقدَّسة بالنسبة إلى الديانات الإبراهيميَّة الثلاث: اليهوديَّة والمسيحيَّة والإسلام. لدى مئات الملايين من أتباع هذه الديانات اهتمامٌ متعارَفٌ عليه في الحفاظ على المواقع والمباني التاريخيَّة المرتبطة بأصل كلِّ ديانةٍ وتاريخها والعناية بها، وكانت القدس على مدى قرونٍ عديدة مركَزًا للحَجّ. وليس من قبيل المبالغة القول إنَّها تحتلُّ مكانةً فريدةً من نَوعها في العالم. إنَّه شعورٌ لا مثيلَ له ذاك الذي ينتابُ المرءَ عندما يسيرُ في شوارع المدينة القديمة الضيِّقة بكلِّ منشآتها الدينيَّة ومعالمها التاريخيَّة.

اسم المدينة في العربيَّة مشتقٌّ ممَّا هو مقدَّس، أمَّا اسمُها القديمُ "أورشليم" فيعني مدينة السلام. في الفترة ما بين الحربَين العالميَّتَين، كانت فلسطين تحت الانتداب البريطانيِّ عندما كنتُ طفلًا مقيمًا هناك، وكان السلام يسودُ "أورشليم" بالفعل معظم الوقت. كانت الحياةُ سعيدةً يتخلَّلها القليلُ من المتاعب أو التعقيدات، وكان الجميع، مسلمون ومسيحيُّون ويهود، يعيشون بوفاقٍ وانسجامٍ تامَّين معًا. كان المرءُ يعيشُ وَفقًا لقاعدة السلوك المشهورة: "عامِل الآخرين كما تُحِبُّ أن يُعاملوك"، وإذا ما تقيَّدَ الشخصُ بالقانون، فلن يُشكِّك أحدٌ فيه. في تلك الأيَّام، لم تكُنْ القدسُ مدينةً كبرى؛ بل كانت أشبهَ بعائلة- عائلةٍ كبيرة. كان الناس يعرفون بعضُهم بعضًا،

ولم يهتمَّ أحدٌ بمعرفة الدِّين الذي يعتنقُه الآخر. كان الناس يمارسونَ أعمالَهم اليوميَّة، ولم يكُنْ أحَدٌ يفكِّر في نفسه أنَّ هذا مسيحيٌّ أو ذاك مسلم! واسْمُ عائلتي، ناصر، وهو اسمٌ يتشاركُ به المسلمون والمسيحيُّون على حدٍّ سواء، فلم تكنْ لدى الناس أيَّة فكرة إنْ كنتُ مسلمًا أو مسيحيًّا.

كانت عائلتي من قرية لِفتا الواقعة في ضواحي القدس الغربيَّة، على بُعد خمسةِ كيلومتراتٍ تقريبًا من البلدة على طريق حَيفا. كانت منحدرات التلال في قرية لِفتا مأهولةً منذ الأزمنة القديمة إلى أن دُمِّرتْ بعد فترةٍ قصيرة من قيام دولة إسرائيل. اشتُهِرَت القرية بنَبعها وقبورها المحفورة في الصخور، وكذلك بمزار رجلٍ حكيمٍ فيها يُدعى الشيخ بَدْر. في عام ١٩١٧م، رفع سكَّان لِفتا أعلامًا بيضاءَ مرحِّبين بالقوَّات البريطانيَّة التي كانت تتقدَّم باتِّجاه القُدس تحت قيادة الجنرال إدموند أَلِنبي (Edmund Allenby) ضمن حملة الحلفاء العسكريَّة ضدَّ الأتراك العثمانيِّين. وفي لَفْتةٍ رمزيَّة، سلَّم أهالي القرية الجنود مفاتيح البلدة. كانت لِفتا القرية الأكثر تميُّزًا بين جميع القرى المحيطة بالقدس، وكانت معظم الأراضي حول المدينة، وصولًا إلى جبل المكبِّر (Mount Scopus)، تابعةً لقرية لِفتا. كان جدَّاي يملكان الكثير من الأراضي. وتملَّك جدِّي لأبي أراضيَ ليس فقط حول القدس، بل أيضًا قُرْب البحر الميِّت في ما كان يُدعى حينئذٍ، عَبْر الأردنّ. واعتاد أن يُمضيَ وقتًا طويلًا في العناية بممتلكاته، لكنَّه كان أيضًا يُحبُّ الجلوس في المقاهي وتدخين النارجيلة في الهواء الطَّلْق مع أصدقائه. كان أيضًا يذهبُ كلَّ يَوم إلى المدينة القديمة ليُصلِّي، وعادةً ما يكون ذلك في مسجد عمر قُبالة الساحة الجنوبيَّة لكنيسة القيامة.

وكان جدِّي لوالدتي، الحاج إسماعيل النجَّار، رجلًا مَرموقًا جدًّا في المنطقة. كلَّما حدَثَتْ مشاجراتٌ أو مشكلاتٌ من أيِّ نوعٍ بين السكَّان المحلِّيِّين، كانوا يأتون إليه للفَصل فيها، ونذكر مثلًا النزاعات على الأَراضي، أو حتَّى الخلافات العائليَّة ما بين الأزواج. كان رجلًا قديرًا وذكيًّا، ولو أمكَنَه، لساعَدَ الجميع. أذكر أنَّه كان

يأتي إلى البيت أحيانًا ثلاثة أو أربعة مجموعاتٍ مختلفةٍ من الناس، وفي كلِّ مرَّة كان يذبحُ الخرفان لهم تمشِّيًا مع التقاليد الإسلاميَّة، ليس فقط بِداعي كَرَم الضيافة، بل أيضًا لتَقديم الأضاحيِّ بِاسْم الله وتوزيع لحمها على الآخرين. فإذا كان هناك خمسة أشخاص مثلًا، كان يُذبَح ثلاثةُ خرفان أو أربعة، ثمَّ بعد رحيلهم في المساء، كان يأتي أشخاصٌ آخرون، فكان هناك نشاطٌ دائمٌ في بيت الأسرة. والحالُ كانت مُشابهةً في منزل أُسرة جدِّي لوالدي، الحاج أحمد ناصر، عندما كان الناس يأتون إليه ليَقضيَ بينهم. ساعدَتني هذه الخلفيَّة بشكلٍ كبيرٍ جدًّا؛ حيث إنِّي كنتُ أراقبُ بدقَّةٍ كيف كان الناس يتعامَلون بعضُهم مع بعض، وكيف كانوا ينظرون بعضُهم إلى بعض، وما كان يدورُ في أذهانهم. أخذْتُ على عاتقي أن أكتسبَ قدرَ ما أستطيع من هذه الخبرة وأن أتعلَّمَ كيف أستفيدُ من علاقاتي. كنت الابنَ الأكبرَ في عائلتي، لذا بدأتُ أشعر بحسِّ المسؤوليَّة منذ صباي. كان والدي ينتهزُ كلَّ فرصةٍ لضَمان مشاركتي في جميع أمور عائلتنا، وكان هدفُه أنِّي يجب أن أكتسبَ الخبرةَ اللَّازمةَ لإعدادي للمستقبل. كان دائمًا يشدِّد على أهمِّيَّة الخبرة، لذا كنتُ أَحضُرُ اجتماعاتٍ كثيرةً كانت تُناقَشُ فيها قضايا سياسيَّةٌ واقتصاديَّةٌ واجتماعيَّة.

كانت بعضُ الأراضي التي تمتلكُها الأُسرة في القدس وحولها أراضيَ زراعيَّةً، لكنَّ معظمَها كان مخصَّصًا للأبنية، وكان لدينا العديدُ من البيوت، بما فيها منزل أسرتنا في روميما (Romema). غير أنَّ عملَ والدي اليوميَّ كان أن يضمنَ تَزويدَ القدس كلِّها بالماء وتوزيعَه، وهذا كان عملًا ذا أهمِّيَّة حيويَّة في هذه المنطقة القاحلة من العالم، ممَّا كان يعني أنَّه كان يتعاملُ مع معظم السلطات القياديَّة في المدينة. في البداية، جَلَبَ الرومانُ الماءَ إلى القدس بواسطة أنابيبِ جرِّ المياه من الجنوب، لكنْ بحلول العصور الوسطى كان الزمنُ قد عفا على هذا النظام. وكان الأتراك يجمعون مياهَ الأمطار في أحواضِ تخزينٍ عندما كانوا في السُّلطة، وإلَّا فكانوا يجلبون الماء إلى المدينة في جلود الماعز. بعدما وطَّدتِ السلطاتُ العسكريَّةُ البريطانية سيطرتها على

القدس في حَزيران/يونيو ١٩١٨م، كان أحَدَ أوَّلِ الأمور التي قامت بها هو إعادةُ تأسيس إمدادات المياه المأمونة والمنتظمة، وهو إرثٌ كان والدي قادرًا على البناء عليه.

كان صديقًا لرئيس بلديَّة القدس العربيِّ، راغب بِك النشاشيبي، الذي شغل هذا المنصب لفترة طويلة، وقد أثَّر فيَّ تأثيرًا بالغًا بشخصيَّته القويَّة والشجاعة التي كان يُظهرها عند التعامل مع أيَّة مشكلة أو عندما كان يفكِّر في التأثير الذي كان يتركه في الناس الذين كان يتعامل معهم. كان رئيسَ بلديَّةِ جميع أحياء القدس العربيَّة واليهوديَّة ومناطقها، وكان قادرًا على تعزيز البنية التحتيَّة للمدينة ونَقْل صورتها إلى الخارج، حتَّى إنَّه اعتُرِفَ بها بسرعةٍ أنَّها إحدى المدن الرائدة في العالم. تقديرًا لحقيقة أنَّ الغالبيَّة العظمى من دافعي الضرائب في بلديَّة القدس كانوا من العرب، صِيغَ ترتيبٌ رسميٌّ يكونُ رئيس البلديَّة بموجبه عربيًّا وله نائبان: أحَدُهما مسيحيّ، والآخر يهوديّ، ممَّا يعكس التركيبة السكَّانيَّة. وقد شغلَ راغب بك النشاشيبي ويعقوب فرَّاج ودانيال أوستر (Daniel Auster) هذه الوظائف لفترةٍ طويلة، وعمل هؤلاء السادة الثلاثة معًا في تَعاونٍ وتنسيقٍ بهيجَين.

كان الموظَّفون الرسميُّون البريطانيُّون الذين كانوا يُديرون شؤون فِلَسطين سعداءَ أيضًا بالعمل مع والدي والتحدُّث إليه، بمَن فيهم المفوَّضُ السامي البريطانيّ، وهو أعلى منصبٍ رسميٍّ لدى الانتداب البريطانيّ. وفي سنٍّ باكرة، كنتُ أرافقُ والدي في زياراته المِهْنيَّة والاجتماعيَّة، ممَّا عنى أنِّي تعرَّفتُ إلى جميع أنواع الناس، كما عرفتُ الطرقَ التي تسيرُ بها الأمور، وهذا ما أكسَبَني مِيزةً جيِّدةً في حياتي السياسيَّة اللَّاحقة. وعندما كبرتُ أكثر، كنتُ أطرحُ أسئلةً على القادة الدينيِّين المسلمين الذين قابلتُهم معه، حول الشريعة الإسلاميَّة ومواضيع أُخرى. بهذه الطريقة تعلَّمتُ أن أتحدَّثَ إلى الناس لكنْ دون أن أخضعَ لتأثيرٍ غيرِ ملائم من أيِّ شخصٍ- أن أكونَ مستقلًّا ومؤمنًا بنفسي وأن أتحلَّى بالشجاعة. كان في وُسعي أن أناقشَ مواضيعَ يقرأُها الشخصُ عادةً في الصحف، وهذا كان حافزًا كبيرًا للتعلُّم، ومَنحَني التَّصميمَ على الاحتفاظ بعقلٍ منفتح.

كان والدي يقودُ سيَّارةً من نوع فيات (Fiat). وفي وقتِ فراغه، كان يحبُّ اصطيادَ الحمَام، وكنتُ أرافقُه. كان ممشوقَ القامة وصحيحَ البنية ومتوسِّط الطول، وكنتُ مُعجبًا جدًّا به. كان يلبِّي دائمًا حاجاتِ أولاده ويرتِّبُ مواعيدَ لنا مع طبيب الصحَّة وطبيب الأسنان، أو كان يتأكَّدُ من أنَّنا أكمَلْنا وظائِفَنا. وكَوني الابنَ الأكبر، كنتُ في كثيرٍ من الأحيان أكثرَ صرامةً بكثيرٍ مع إخوتي وأخواتي ممَّا كان هو؛ إذ كان يضحكُ ويقولُ لي أن أتركَهم يمارسون ما يحلو لهم. كنَّا عشرةً في نهايةِ المطاف، وعِشْنا في بيتٍ كبيرٍ جدًّا حيثُ كان لكلٍّ منَّا غرفتَه الخاصَّة. عندما كبرَ الصبيان في السنّ، كنَّا نلعبُ كرةَ القدم معًا، وفي بعض الأحيان كنَّا نلعبُ التَّنِس مع أخواتي.

لم تنَلْ والدتي قسطًا وافرًا من التعليم، لكنَّها كانت تملكُ الكثيرَ من الذكاء الفطريّ. كانت تُدير منزلَ الأُسرة وتُشرف على الخَدَم والطبخ. كانت تحبُّ الذهاب إلى السوق بمفردها لشراء الموادِّ التموينيَّة، وأحيانًا تصطحبُ معها خادمةً أو اثنتَين. وكانت تحصلُ على معظم الأشياء من الجوار، لكنَّها كانت تذهبُ أحيانًا إلى المدينة القديمة. كانت ماهرةً في التطريز، وتُمضي ساعاتٍ كثيرةً وهي تطرِّزُ الأثوابَ ذات الطراز العربيّ. كانت بانتظام تزورُ إخوتَها وأخواتِها ووالدَها الذين كانوا يقطنون في الحيّ. كنَّا جميعًا قريبين بعضنا من بعض؛ ولم يكَدْ أن يمرَّ يَومٌ دون أن يتحدَّثَ الجميعُ بالهاتف مع الآخرين أو أن يرى بعضنا بعضًا.

كانت الراهبات الفرنسيَّات يُدِرنَ أوَّل مدرسةٍ التحقتُ بها، وكانت تقع في وسط المدينة مقابل المستشفى الألمانيّ. كان والدي- الذي كان يعرفُه الجميع باسمه المجرَّد، جميل- على علاقة طيِّبةٍ جدًّا بهؤلاء الأخوات المسيحيَّات، كما كان مع القادة الدينيِّين المسلمين. كان جدِّي وأفرادُ العائلة من كبار السنِّ متديِّنين إلى حدٍّ بعيد، لكنَّ والدي لم يكن كذلك؛ حيث كان يتقيَّدُ فقط بما يتوافقُ مع متطلَّبات الدِّين الإسلاميّ. كان مثقَّفًا ثقافةً عالية، حيث إنَّه كان مهندسًا ومحاميًا. درس في تركيا وسافرَ كثيرًا إلى أوروبا، وكان يجيدُ العربيَّة والتركيَّة والعبريَّة بالإضافة إلى الفرنسيَّة

والألمانيَّة- التي درسها في مدرسة ثيودور شنلَّر (Theodor Schneller School) في القدس- ودون شكّ، كانت لغتُه الإنكليزيَّة جيِّدة جدًّا أيضًا. كان معظم الناس في فِلَسطين في ذلك الوقت يتكلَّمون الإنكليزيَّة بعضَ الشيء بسبب الانتداب البريطانيّ. لكن بخلاف الفرنسيِّين في سورية ولبنان، لم يحاولِ البريطانيُّون فَرْضَ لغتهم وثقافتهم على سكَّان فِلَسطين. كان هناك عددٌ من الصُّحف باللُّغة الإنكليزيَّة، بما فيها صحيفة "پالستاين پوست" (Palestine Post) العبريَّة، لكنْ لم يكنْ أيٌّ منها يُقارَن بالمطبوعات الفرنسيَّة المتطوِّرة التي كان يمكنُ أن تجدَها في بيروت.

كان والدي يحبُّ مناقشةَ الأمور مع المفكِّرين اليهود، كالدكتور يهوذا ماغنيز (Judah Magnes)، الحاخام الأميركيِّ الذي كان له دَورٌ أساسيٌّ في تطوير الجامعة العبريَّة في جبل المكبِّر. كان الدكتور ماغنيز رجلًا بَعيدَ النظر، وأعلنَ ذاتَ مرَّةٍ بشكلٍ جديرٍ بالذِّكر: "أنا لستُ مستعدًّا لأنْ أحقِّقَ العدالة لليهود عبر ظُلم العرب، وأَحسبُ أنَّ من الظلم للعَرب أن يوضَعوا تحت الحكم الصِّهْيَونيِّ دون موافَقَتهم".

كنت أحضُرُ اجتماعات والدي مع الدكتور ماغنيز وأشارك في المناقشات. أذكرُ أنَّه بعد التِحاقي بالجامعة الأميركيَّة في بيروت طالبًا في برنامج البكالوريوس، كان الدكتور ماغنيز يسألُني عن الطلبة اليهود هناك. أخبرتُه بمقدار العلاقة الوثيقة للطَّلبة العرب واليهود في الجامعة، وكيف أنَّهم كانوا يشاركون معًا، بصفتهم أصدقاء مقرَّبين، في جميع الأنشطة الثقافيَّة والاجتماعيَّة.

لن أنسى ما حييت أمرًا واحدًا قاله لي خلال هذه المحادثات التي دارَتْ بَيننا: "يجب على العرب واليهود أن يعيشوا معًا كما فعلوا في السابق". وقبل فترةٍ قصيرةٍ من وفاته في عام ١٩٤٨م، أشارَ إلى أنَّ دولة إسرائيل الجديدة كانت تقعُ في بحرٍ من العرب. ومع أنَّه كان لدى بعض قادتها المتطرِّفين الانطباعُ أنَّ في وُسعهم إخضاع العرب وحَشدِ الدعم الغربيِّ عبر يهود الشتات، فقد كانوا مخطئين. وأقرَّ بأنَّ العرب الفِلَسطينيِّين هم شعبٌ ذكيٌّ ومجتهد، وأنَّهم لن ينسوا البتَّة أنَّهم طُردوا من فِلَسطين

بعد أن عاشوا فيها مدَّة ٢٠٠٠ سنة، وأنَّ ممتلكاتِهم صودرَتْ وبيعَتْ لليَهود في أثناء غيابهم. وأوضح الدكتور ماغنيز أنَّه هو وكثيرين مثله لا يوافقون بتاتًا على سياسةٍ متطرِّفةٍ كهذه، والتي ستُبرهنُ على المدى الطويل أنَّها مُضرَّة بالقضيَّة الفِلَسطينيَّة. وبصورةٍ مشابهة، قال الفيزيائيُّ الرياضيُّ اليهوديُّ المولود في ألمانيا، ألبرت أينشتاين (Albert Einstein) إنَّه يُفضِّل أن يرى اتِّفاقيَّة معقولة مع العرب على أساس العَيش المشترك في سلام على تأسيس دولةٍ يهوديَّة.

هكذا كانت الحياةُ في ذلك الوقت. وكان هناك تبادلٌ كبيرٌ ما بين العرب واليهود، وإنْ على مستوًى متواضع. كانت النساء العرب القرويَّات غالبًا ما يعرفنَ اللغة العبريَّة؛ لأنَّهنَّ كنَّ يخالِطنَ بشكلٍ وثيقٍ جيرانهنَّ اليهود. وصِرنَ خبيراتٍ في التحدُّث بالعبريَّة مع أنَّهنَّ لم يكنَّ يستطعنَ كتابةَ كلمةٍ واحدة! وكان الكثير من النساء العبريَّات يعرفْنَ اللُّغة العربيَّة أيضًا، وهكذا تمكَّنتِ المجموعتان من مشاركة قِيَمِهما ومشاعرِهما المشتركة.

في الواقع، كانت هناك مجموعتان متميِّزتان من اليهود في فلسطين: السفرديم (Sephardim) والأشكناز (Ashkenazin). كانت غالبيَّة السفرديم هم ممَّن نشأوا في إسبانيا وكانوا رعايا عثمانيِّين قبل عام ١٩١٨م. ولذلك كانوا يتمتَّعون ببعض حقوق المُلكيَّة. اعترفَتِ السلطاتُ التركيَّة بأَحَدِ حاخاماتهم بصفة ناطقٍ رسميٍّ بِاسْم جماعتهم، وقد تقلَّدَ في ما بعدُ منصبًا رسميًّا هو منصبُ الحاخام الأعظم. من جهةٍ أُخرى، كان الأشكنازُ قد وافوا منذ فترةٍ حديثة جدًّا من أمكنةٍ مثل روسيا وبولندا وألمانيا والنمسا وهنغاريا، حيثُ هربَ الكثيرُ منهم من الاضطهاد في بلدانهم الأصليَّة. قدَّمَ إليهم عربُ فِلَسطين كلَّ أنواع المساعدة ورحَّبوا بهم في بيوتهم. كرَّسَ جزءٌ كبيرٌ من الأشكناز معظمَ وقتهم لممارسة الشعائر الدينيَّة. كانوا يُموَّلون بشكلٍ كبير من قِبَل مؤسَّسات مركَزها خارج فِلَسطين، وأقاموا في مناطقَ من المدينة مثل ميا شيريم (Mea Shearim) ومسكارة (Maskaret) وميشغينوت (Mishgenot) وراند هاوزز (Rand Houses) والبيوت

الهنغاريَّة. كانت لغتُهم الرئيسيَّةُ هي لغة يِديش (Yiddish) التي تُشبهُ اللُّغة الألمانيَّة. من الناحية الأُخرى، كسبَ السفرديم معيشتَهم في فلسطين وسكنوا في بيوتٍ استَأجروها من العرب، أو في أماكن أسَّسها مانحون أثرياء من الخارج مثل مونتيفيوري (Montefiori). سكنت بعض العائلات من المجموعتَين كلتَيهما في ما كان يُدعى الجزءَ اليهوديَّ من المدينة القديمة، في بيوتٍ كان يملكها أفرادٌ عربٌ أو كانت أوَقافًا (هبات دينيَّة إسلاميَّة).

في الوقت الذي صدرَ فيه ما يُعرَف بِاسْم وعد بلفور (Balfour) في عام ١٩١٧م، كان عدد سكَّان فِلَسطين نحو ٦٧٠,٠٠٠ نسمة. وكان عددُ اليهود لا يتجاوَزُ ٦٠,٠٠٠ نسمة تقريبًا، ممَّا يعني أنَّ نحو ٩١٪ من سكَّان فِلَسطين كانوا عربًا، و٩٪ فقط كانوا يهودًا. وبموجب سجلَّات إحصاء الإدارة البريطانيَّة، ازدادَ عدد سكَّان القدس من ٩١,٢٧٢ في عام ١٩٢٢م، إلى ١٣٢,٦٦١ في عام ١٩٣١م (أي ما يزيد على ٤٠ ألفًا في تسع سنوات)، حيثُ إنَّ الناس تدفَّقوا إلى المدينة لأسبابٍ اقتصاديَّةٍ ودينيَّة. شملَ هذا العددُ قُدومَ أكثر من ٢٠,٠٠٠ يهوديّ، وكانت معظم المجموعات الوطنيَّة العربيَّة تُعارضُ قُدومَهم. غير أنَّ السلطاتِ البريطانيَّةَ كانت في وَضْعٍ صعبٍ جرَّاء عواقب وعد بلفور. ووردَ هذا في رسالةٍ مؤرَّخة في ٢ تشرين الثاني /نوفمبر ١٩١٧م من وزير الخارجيَّة البريطانيّ، آرثر جيمس بلفور (Arthur James Balfour) إلى أحَد قادة الجماعة اليهوديَّة في بريطانيا، اللورد روتشيلد (Lord Rothschild). أعلنَ بلفور في هذا التقرير الخاصِّ أنَّ "حكومة صاحب الجلالة تنظرُ بِعَين العَطْف إلى إقامة وطنٍ قوميٍّ في فِلَسطين للشعب اليهوديّ، وستبذلُ غايةَ جَهْدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يُفهَمَ جليًّا أنَّه لن يؤتى بعملٍ من شأنه أن ينتقصَ من الحقوق المدنيَّة والدينيَّة التي تتمتَّع بها الطوائفُ غير اليهوديَّة المُقيمة في فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسيِّ الذي يتمتَّع به اليهود في أيِّ بلدٍ آخر".

بالنسبة إلى الصهاينة، فُسِّرَ هذا الكلامُ لاحقًا على أنَّه ضَوءٌ أخضرُ من الحكومة البريطانيَّة لإقامة دَولةٍ يهوديَّةٍ حتميَّة. لكنَّ الفِلَسطينيِّين لم يكونوا الوَحيدين الذين

أدركوا تَناقُضاتِه الجوهريَّةَ وتأثيره السلبيَّ المُحتمَلَ في الوَضْع الراهن. فمثلًا، وصفَ جاي. أم. أن. جيفريز (JMN Jeffries) وَعْدَ بلفور بأنَّه "غير قانونيٍّ في مَوضوعه، عشوائيٌّ في هدفه، ومخادعٌ في صياغته"، وذلك في كتابه "**فلسطين: الواقع**" *(Palestine: The Reality)*، الذي نُشِر أوَّلَ مرَّةٍ في عام ١٩٣٩م، كما أدانَ الوعدَ واصفًا إيَّاه بأنَّه "أكثر الوثائق خزيًا بين تلك التي وَقَّعتْ عليها الحكومة البريطانيَّة".

في ٢٥ نيسان/أبريل عام ١٩٢٠م، وافقَ المجلسُ الأعلى لقوى التحالف على نقل انتداب فِلَسطين إلى بريطانيا العُظمى على أساس التفاهم بأنَّ وَعْد بلفور سيُطبَّق. أكَّد مجلسُ عصبة الأمم على مسوَّدة الانتداب في ٢٤تمُّوز/يوليو ١٩٢٢م، ودخل الاتِّفاقُ حيِّز التَّنفيذ في ٢٩ أيلول/سبتمبر ١٩٢٣م. وفي الأوَّل من تمُّوز/يوليو ١٩٢٠م، استبدلَتِ الحكومةُ البريطانيَّة بالإدارة العسكريَّة إدارةً مدنيَّة يرأسُها المفوَّض السامي، هربرت صموئيل (Herbert Samuel) الذي كان هو نفسُه يهوديًّا بارزًا، وشغلَ سابقًا منصبَ وزير داخليَّة بريطانيا. وعُيِّنَ عددٌ من اليهود البريطانيِّين الآخرين في مناصب عُليا في الإدارة، بمَن فيهم نورمن بينتوِتش (Norman Bentwich) في منصب رئيس البرلمان والنائب العامِّ في فِلَسطين، وألبرت هيامسون (Albert Hyamson) في منصب مدير الهجرة، وماكس نوروك (Max Nurock) في منصب وزيرٍ مساعدٍ للحكومة الفِلَسطينيَّة.

مردِّدين بعض العناصر الواردة في وَعْد بلفور، صيغَتْ بنودُ الانتداب البريطانيِّ بفاعليَّة ليَشملَ هدفَين مختلفَين بروحَين مختلفتَين. نصَّت المادَّة الثانية على أن "تكون الجهة المنتَدِبة مسؤولةً عن وَضْع الدولة تحت أحوالٍ سياسيَّة وإداريَّة واقتصاديَّة تضمنُ إقامةَ وطنٍ يهوديٍّ على النحو المنصوص عليه في التَّمهيد، وتطوير مؤسَّسات تُحكَم ذاتيًّا، إضافةً إلى حماية الحقوق المدنيَّة والدينيَّة لجميع سكَّان فِلَسطين بصَرْف النَّظر عن العِرْق والدِّين". منذ بداية الانتداب عام ١٩٢٢م وحتَّى نهايته في ١٥ أيَّار/مايو ١٩٤٨م، كانت جميعُ السلطات التشريعيَّة والتنفيذيَّة في فِلَسطين في أيدي الحكومة البريطانيَّة من خلال المفوَّض السامي البريطانيِّ وموظَّفيه. في هذا كلِّه، حُرِمَ العرب

من أيِّ حقٍّ في الحكم الذاتيّ، لكنَّ اليهود- وَفقًا للمادَّة الرابعة من بنود الانتداب- تمتَّعوا بامتيازٍ خاصٍّ "أنَّ وكالةً يهوديَّةً سيُعترفُ بها على أنَّها هيئةٌ عامَّة تهدفُ إلى تقديم المشورة والتعاون مع إدارة فِلَسطين في الشؤون الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة وغَيرها من الأمور التي قد تؤثِّر في إقامة وطنٍ قوميٍّ للشعب اليهوديّ". وبمرور السنين، مارسَتِ الوكالةُ اليهوديَّة سلطاتٍ جذريَّةً حتَّى إنَّها صارت حكومةً داخل حكومة.

كانت القدسُ المركَزَ الإداريَّ لفِلَسطين. بالإضافة إلى توفير المقرِّ الرئيسيِّ للسلطات البريطانيَّة، كانت المدينة مقرًّا لمنظَّماتٍ سياسيَّةٍ ودينيَّةٍ عربيَّة متعدِّدة، بما فيها المجلسُ الإسلاميُّ الأعلى (الذي كان يرأسُه مفتي القدس، وكان مبناه على بُعدِ مسافةٍ قصيرةٍ سَيرًا على الأقدام من مسجد عمر) إضافةً إلى الهيئة اليهوديَّة والمفوَّضيَّة الصِّهْيَونيَّة ومنظَّماتٍ صِهْيَونيَّةٍ أُخرى. إنَّ تطوُّرَ القدس في أثناء الانتداب جعلَ من الضروريِّ توسيع المنطقة الحضريَّة. كانت معظم مناطق المدينة الجديدة والحديثة عربيَّة، مثل كاتامون (Katamon)، وبقاع (Bakaa)، ودير أبو طور (Deir Abu Tour)، وطلبِيا (Talpiah)، ومُسرارة (Musrara)، ووادي الجوس (Wadi al-Jous)، والشيخ بدر (Sheikh Bader)، والشيخ جرَّاح (Sheikh Jarrah)، وماميلَّه (Mamillah)، وطريق جوليان (Julian's Way)، وطريق بيت لحم، وشارع الأنبياء، وكَرم الرهبان. كانت هناك بعضُ المناطق الأُخرى التي كان يمكن حسبانُها أحياء يهوديَّة، لكنَّ نسبةً كبيرة من الأبنية الحديثة كانت في الواقع مُلكًا للعرب، مثل شارع بن يهودا، وميكور باروخ (Mikor Baroukh)، وبكساليل (Bexalel)، وسانهادريا (Sanhadria) وروميما. وبُنيَتْ أربعُ مناطقَ يهوديَّةٌ فقط في القدس في أثناء الانتداب البريطانيّ: راهافيا (Rahavia)، كَرم إبراهيم (Karem Abraham)، تالبِيوث (Talpioth)، وبيت حكاريم (Beit Hakarem)، لكنَّها كانت مُحاطةً بمناطقَ يملكُها العربُ حصرًا ويسكنون فيها. كانت المناطقُ التجاريَّة الحديثة في المدينة- مثل شارع حيفا المركَزيِّ وشارع الأميرة ماري وشارع الملك جورج- في معظمها مُلكًا للعرب. وهكذا، على الرُّغم من

سياسة الإدارة البريطانيَّة في تنفيذ وعد بلفور، بالإضافة إلى تصميم الصَّهاينة الذي لا يتزعزع على تثبيت قَبضتهم على القدس، بَقِيَتِ المدينةُ عربيَّة، بشخصيَّتها العربيَّة النقيَّة، وبغالبيَّةٍ عربيَّةٍ في عدد السكَّان وامتلاك الأراضي.

كان من الطبيعيِّ أن تكونَ القدس مركَزَ الأنشطة السياسيَّة. من هناك انطلقَتِ التظاهراتُ العربيَّة الأولى ضدَّ وعد بلفور، ووقعَتْ بالفعل الاضطرابات العربيَّة الأولى في المدينة قبل أن تنتشرَ في أرجاء الدولة بمختلف الأشكال والأنواع، ممَّا أدَّى في النهاية إلى اندلاع حربٍ أهليَّة. وبمرور الوقت، صارَتِ الأمورُ أصعبَ وأصعب، ووقعتْ صداماتٌ عنيفة. لقد كان اليهودُ الذين كانوا في فِلَسطين قبل الانتداب البريطانيِّ عمومًا أُناسًا طيِّبين جدًّا، وكانوا يعيشون بِوِفاقٍ مع العرب يتقاسَمون معهم كلَّ شيء. وبرزَتِ الصعوبةُ من الأشخاص الجدد الذين قدِموا من أوروبا؛ إذ كانت لديهم عقليَّةٌ مختلفة. لم يتعامَلِ اليهودُ المحلِّيُّون مع اليهود الجدد الآتين من أوروبا، قائلين إنَّهم لا يفهمونهم؛ فقد كانوا يفضِّلون التعاملَ مع العرب. من جهتهم، كان الآتون الجدد ينظرون إلى الأمور من وجهة نظرِ مقدارِ النفوذ الذي كان لديهم في إنكلترا ولاحقًا في أميركا. بالإضافة إلى هذا، حاوَلوا قدرَ استطاعتهم الحصولَ على أكبر عددٍ من الامتيازات. سبَّبوا النزاعات والاختلافات عندما رأى الآخرون أنَّ البريطانيِّين في الواقع كانوا يقدِّمون إليهم الامتيازات تماشيًا مع وعد بلفور.

عندما حان الوقت الذي كنتُ فيه مستعدًّا للذَّهاب إلى المدرسة الثانويَّة، اختارَ والدي لي إحدى أفضل المدارس في البلاد- مدرسة القدِّيس جورج للذُّكور، والتي كانت مرتبطةً بكنيسة القدِّيس جورج الشهيد الإكليريكيَّة الأنغليكانيَّة على الجانب الآخر من بلدة لِفتا. وتقرَّر أنِّي يجب أن ألتحقَ بالقسم الداخليِّ فيها وإلَّا كنتُ سأُضطرُّ إلى عبور الأحياء اليهوديَّة في غرب القدس مرَّتَين يوميًّا. هذا لا يعني أنَّ المنازلَ في تلك المناطق كانت بالضَّرورة مُلكًا لليهود؛ إذ كان معظمُها في الحقيقة بيوتًا عربيَّة وكان اليهود القاطنون فيها مجرَّد مستَأجِرين. كانت لديهم بعض

الممتلكاتِ لكنْ ليس الكثير منها. كانت معظمُ البيوت الكبرى وأبنية المكاتب وغيرها مملوكةً من قِبَل العرب.

تأسَّستْ مدرسةُ القدِّيس جورج في عام ١٨٩٩م. ومؤسِّسُها هو أُسقفُ القدس الأنغليكانيُّ في ذلك الحين جورج بلايث (George Blyth)، الذي كان قد حصلَ على تفويضٍ من المسلمين وطائفَتَي اليونان الأرثوذكس والروم الكاثوليك، معلِّلًا ذلك بحُجَّة إنشاء مدرسةٍ ناطقةٍ باللُّغة الإنكليزيَّة يستطيعُ فيها الذكور العربُ ممَّن ينتمون إلى عائلاتٍ كريمة- غنيَّةً كانت أم فقيرة- أن يتعلَّموا قدرَ المستطاع بموجب أنظمة المدارس العامَّة الإنكليزيَّة. نتيجةً لذلك، غُرِسَ الانضباط فينا. مثلًا، إذا رمى أحَدُهم قطعةَ ورقٍ على الأرض أو في أرجاء المدرسة، كان يُعاقَب بخصم علاماتٍ من درجاته المدرسيَّة. كان التدخين ممنوعًا منعًا باتًّا، ولم يكن الأهالي يُشجَّعون على زيارة المدرسة خلال الفصل الدراسيّ، لكنَّه كان يُسمَح لنا، نحن الطلبةَ في القسم الداخليِّ، بالذَّهاب إلى البيت بين فترةٍ وأُخرى خلال عُطَل نهاية الأسبوع وعطلات الأعياد.

كانت المدرسة في ضاحية الشيخ جرَّار في المنطقة العربيَّة من القدس. ومن الأمور التي كان لها بالغُ الأثر فيَّ هو أنَّ كثيرًا من المسؤولين البريطانيِّين حينها كانوا يُقيمون في المنطقة العربيَّة حيث كانت لديهم داراتٌ جميلة. كان بعض الأساتذة في المدرسة فِلَسطينيِّين لأنَّهم اختيروا لإعطاء تَوجيهاتٍ باللُّغة العربيَّة ولتدريس المواضيع العربيَّة، لكنَّ البريطانيِّين كانوا مسؤولين عن الموادِّ التي تُدرَّس باللُّغة الإنكليزيَّة، مثل الرياضيَّات والفيزياء والكيمياء. كان هناك تركيزٌ قويٌّ أيضًا على مادَّة التاريخ التي كانت تُدرَّس جزئيًّا باللُّغة العربيَّة وبالإنكليزيَّة أيضًا.

استَفدتُ كثيرًا من هذا كلِّه. كان الطلبة يتوافَدون إلى المدرسة، ليس فقط من أرجاء فِلَسطين، بل أيضًا من جميع أنحاء العالم العربيِّ ممَّا عملَ على تَوسيع خبرتي.

كان من الصعب عليَّ بداية الأمر أن أكونَ طالبًا في القسم الداخليّ؛ لأنّي لم أعتَدِ الابتعادَ عن البيت. غير أنّي تأقلمْتُ مع الوضع، وتكيَّفتُ مع المحاضَرات الليليَّة والاجتماعات والانضباط وكلِّ ذلك. كانت المدرسةُ تُدارُ بشكلٍ جيِّدٍ جدًّا، وكانت تُجرى الصيانة فيها باستمرار، كانت أجواؤها بيتيَّةً بالفعل من نواحٍ عديدة. كان هناك بعضُ الأساتذة والاختصاصيِّين الإنكليز البارعين، بمَن فيهم مديرُ المدرسة، رغم اعتقادي أنَّ بعضَهم اتَّصفَ بالغرور. اعتقدوا أنَّهم، بصفتهم أوروبيِّين، أكثر تقدُّمًا من السكَّان المحلِّيِّين، ولم ينظروا إلى السكَّان بصفتهم أشخاصًا مساوين لهم. في الواقع، والحقُّ يُقال، كان البعضُ منهم بغيضين حتَّى إنَّ المرءَ لم يرغبْ في التَّعامُل معهم البتَّة. غير أنَّ الطلبةَ العرب كانوا يميِّزون مَن منهم كان جيِّدًا ومَن لم يكُنْ كذلك. من جهةٍ أُخرى، كنَّا نعرفُ أنَّ معظمَهم كانوا يحاولون بَذْلَ قُصارى جَهدهم، وكنَّا نقدِّر ذلك حقًّا.

كنَّا، نحن الصبيان، مُعتادين أن نَحضُرَ اجتماعاتِ المدرسة مرَّتَين أو ثلاثَ مرَّاتٍ أسبوعيًّا في القاعة الكبرى والمشاركة في الترنيم، وهكذا عرفتُ جيِّدًا الكثيرَ من الترانيم المسيحيَّة. كان الجميعُ يحضُرون الاجتماعات ويشاركون فيها، وكانت الألعابُ الرياضيَّة مُهمَّةً جدًّا في حياتنا اليوميَّة. كان للمدرسة ملعبٌ ضخمٌ لكرة القدم، وكنتُ لاعبًا في فريق المدرسة، كما كنتُ أمارسُ التَّنِسَ والسباحة. وكان في وُسعِنا أيضًا الاستفادةُ من المرافق الفخمة الموجودة في جمعيَّة الشبَّان المسيحيِّين (YMCA) التي كانت تقعُ مقابلَ فندق الملك داود. كان العربُ يُديرون هذه الجمعيَّة بشكلٍ رئيسيّ- في الواقع، كان العربُ يملكون فندق الملك داود أيضًا- وكانت هذه الجمعيَّة مَتنفَّسًا جيِّدًا لطاقة الشباب بكلِّ أنشِطَتِها المتعدِّدة. كانت هناك قاعاتُ محاضَراتٍ في جمعيَّة الشبَّان المسيحيِّين، وكانوا يُوجِّهون الدعوة إلى خُطَباءَ متميِّزين للتحدُّث هناك. لقد كان مكانًا جميلًا، لكنَّه كان يُلبِّي في الغالب حاجاتِ العرب وليس اليهود الذين كان لديهم مرافقُ التَّرفيه الخاصَّة بهم في مكانٍ آخر. من وقتٍ

إلى آخر، كان الطلبة الذكور من مدرستنا يشاركون في مسرحيَّات في جمعيَّة الشبَّان المسيحيِّين، حيثُ اعتادَ الأهالي مشاهَدَتَها، والناسُ عمومًا أيضًا.

ما إنْ أكملْتُ دراستي في مدرسة القدِّيس جورج ونجحت بدرجة امتياز، حتَّى بدأتُ أحضُرُ بعضَ المحاضَراتِ التي كانت تُلقى في صفوف كلِّيَّةِ الحقوق الفِلَسطينيَّة. كانت الإدارة البريطانيَّة في فِلَسطين قد أنشأت تلك الصفوف، وكانت مُتَطابقةً في قوانينها وقواعدها مع تلك المعمول بها في المحاكم الإنكليزيَّة. كان كلُّ ما يُقدَّمُ هناك يتبَعُ النِّظامَ الإنكليزيّ- نظام نقابة المحامين وكلِّيَّات الحقوق في جامعات المملكة المتَّحدة. كان المحاضِرون من القضاة البريطانيِّين وبعض المحامين المحلِّيِّين المتميِّزين الذين تلقَّوا تدريبَهم بشكلٍ رئيسيٍّ في الغرب. وكان قاضي القضاة هو مَن يُعيِّنُ القضاة، والذين كانوا بريطانيِّين وعربًا ويهودًا. عملَ العربُ واليهود حينها بصورةٍ وثيقةٍ بعضُهم مع بعض، حتَّى إنَّ بعضَهم دخلَ في شراكاتٍ قانونيَّة. ومن الإنصافِ أن نقولَ إنَّ النظامَ القضائيَّ في فِلَسطين في ذلك الوقت لم يكُنْ له مثيلٌ في المنطقة. ولأنَّ والدي كان محاميًا ومهندسًا أيضًا، صِرتُ مُهتمًّا بالقانون منذ البداية، وكنتُ أحترمُ مِهنةَ المحاماة بسبب الطريقةِ التي درَّبَنا بها البريطانيُّون على احترام القانون والنظام.

على العموم، أُعجِبْتُ جدًّا بالإدارة البريطانيَّة، وبالطريقة التي تُعالج بها المسائل القانونيَّة. لقد طبَّقوا القانونَ الإنكليزيَّ في فِلَسطين مثل ما طبَّقوه في إنكلترا. في معظم الحالات- حيثُ إنِّي لا أستطيعُ الجزمَ في كلِّ حالة- كان الإداريُّون البريطانيُّون مُنصِفين وجيِّدين جدًّا. ولا شكَّ أنَّ هناك أشخاصًا من كلِّ جنسيَّة يحاولون استغلالَ مراكِزهم والاهتمام بأنفسهم، لكنْ كان البريطانيُّون عمومًا مُنصِفين جدًّا. أمَّا بالنِّسبة إلى تنفيذِ القانون، كان هناك رجالُ شرطةٍ بريطانيُّون ورجال شرطة فلسطينيُّون في فلسطين. كان القائدُ بريطانيًّا وتحت إمرَتِه العديدُ من الضبَّاط العرب من ذوي الرُّتَبِ العالية، وكانوا من الفِلَسطينيِّين بشكلٍ رئيس. لكنْ لأنَّ التَّشريعَ كان في يدَيِ النائب

العامّ، نورمن بينتوِتش، صارت القوانينُ منحازةً على نحوٍ متزايد إلى جانب اليهود على حسابِ العرب، تمشِّيًا مع التعليمات الصادرة من لندن. لم يكُنْ هذا الأمرُ على هوى الكثير من البريطانيِّين المقيمين في فِلَسطين. فعندما كان المرءُ يتحدَّثُ إليهم، كانوا يفهَمون ما نشعرُ به من إحباط. كانوا يقولون: "هذا ليس عدلًا، لكنَّ الأمرَ خارجٌ عن سَيطرَتنا؛ حيث إنَّ الأوامرَ تصدرُ إلينا من وزارة المستَعمَراتِ في لندن".

مع بداية الحرب العالميَّة الثانية، فُرِضَتْ بعضُ القيود الجديدة وبدأ تنفيذ سياسةِ التَّقنين، لكنَّنا سرعانَ ما اعتَدْنا الوضع الجديد. كان النظامُ مشابهًا لما كان معمولًا به في إنكلترا من قسائم، وقيود على المشتريات، إضافةً إلى أمورٍ أخرى. كانت دائرةُ التحقيقِ الجنائيِّ (CID) نَشِطةً جدًّا في ذلك الوقت، حيثُ توقيفُ الناس والتحقيقُ معهم. أظنُّ أنَّها كانت تجرِبةً جديدةً بالنِّسبة إلى هؤلاء الرجال البريطانيِّين الشباب في الإدارة. وما عدا ذلك، كان الناسُ يمارسون أعمالهم دون أيِّ تدخُّل. بالإضافة إلى هذا، لم تكُنْ هناكَ أيَّة خِلافاتٍ أو صداماتٍ ما بين العرب واليهود في تلك الأيَّام، بل على العكس، إذ سادتْ حينها كلُّ أشكال التَّعاوُن بين الطرفَين؛ لأنَّ اليهود كانوا قَلِقين جدًّا ممَّا كان يفعلُه النازيُّون في أوروبا. كانوا خائفين جدًّا ولا يعلَمون ما كان سيَحدُث. وهكذا تطلَّعوا إلى المجتمع العربيِّ ليَقِفَ أفرادُه إلى جانبهم ويساعدوهم، آملين أن يختبئوا لديهم أو يتلقَّوا المساعدة منهم بالطُّرقِ المتاحة إذا ما صارتِ الأمورُ إلى الأسوأ. كانت تربطُهم بهم علاقةُ صداقةٍ جيِّدة. لم يبدأ الاحتكاك فعلًا إلَّا في نهاية الحرب العالميَّة الثانية.

وإذ كنتُ شابًّا صغيرَ السِّنّ، سنحَتْ لي الفرصة لأن أسافرَ كثيرًا في أنحاء فِلَسطين وأتعرَّفَها جيِّدًا. كانت دَولةً جميلة جدًّا في تلك الأيَّام؛ وهي لا تزالُ كذلك: طبريَّة، حَيفا، يافا، عكَّا، وغيرها. كنَّا نذهبُ كثيرًا إلى حَيفا؛ فقد كانت عندئذٍ بلدةً عربيَّة خالصة وغايةً في الجاذبيَّة. تملَّكْنا هناك بيَّاراتِ البرتقال، وكنَّا نفحصُها لنتحقَّق من سلامتِها ونموِّها. كنتُ أذهبُ أيضًا مع عائلتي في العطلات إلى أنحاءٍ عدَّة من أوروبا،

بما فيها إنكلترا وفرنسا، بالإضافة إلى قبرص وعددٍ من الدول العربيَّة بما فيها العراق ولبنان. أمَّا بيروت فكانت في أَوجِها بوصفها مركَزًا عالميًّا لمنطقة شرق البحر الأبيض المتوسِّط بكلِّ ما فيها من أُمورٍ جذَّابة. كنَّا نستأجرُ سيَّارةً ونزورُ ربوع المدينة. وحيث إنَّ دراستي في القدس كانت قد قاربَتْ على النهاية، كان والدي يفكِّرُ كثيرًا في المرحلة التالية من تعليمي، وبدا أنَّ الجامعةَ الأميركيَّة في بيروت هي الخِيارُ الأوضح.